يوميات فاقد هوية !

فعلا مللتُ أسئلة الهوية

يوســـــــــــــــــــــــــــــــــف رخـــا

إستيقظت من جراء الأصوات ، ضوضاء تتعارك مع بعضها البعض في ظل الأصداء ، تختلط أصوات السيارات مع أصوات الأطفال وأصوات الركض ، لم تكن تلك الأصوات هي السبب في صحوتي ، فكان هناك علة أكثر تنبيهاً لي حتي أستيقظ ; فالأجواء الباردة لم تجعلني أتنعم بنومي هنيئاً ، كل لحظة تهب علي ؛ ريح تحمل معها صقيع يلامس هندامي العتيق الخالي من القماش المرصع بالثقوب حتي اشعر ببرودة تسري في كل جوانحي ؛ ولـــــذلك لـــــم أعـــــد أشـــــعر بـــــأطرافي مـــــن شـــــدة الصـــــقيع .

ياله من يوم جديد مليء بالشقاء ، ماذا سيكون فطوري اليوم ؟ هل هي قطعة خبز أنتزعها من قط مسكين جوعان مثلما فعلت أمس ؟ أم بواقي أطعمة وجدتها بالكاد في سلة المهملات بعد ساعات من البحث ؟ لكن تلك المشقة لن تستوقفني عن التفكير فيما يشغلني يومياً ، لماذا ينظر الناس إلي هكذا ؟! هل يوجد شيئاً مريباً بي ؟ هل رائحتي العفنة تستفزهم أم سواد بشرتي يخيفهم ؟ هـــــل يـــــداي المتســـــخة تمـــــنعهم مـــــن التصـــــدق علـــــي ؟

مرت الأيام تلو الأيام وأنا في تلك الحال ، أتنقل من مكان إلي مكان ، من شارع الي شارع ، ومن حارة الي حارة، ومن رصيف أنام عليه الي آخر يشبهه ، كل يوم أفكر هل سأجد ماءا أشربه أم سيرفض الناس إعطائي ؟ أتمني ان يلامس الماء جسدي حتي أشعر بأنني لازلت علي قيد الحياة ، فقد نسيت ذلك الشعور المريح عندما تنهمر قطرات المياة علي جسدي وتنعشني وتجدد بهجتي ، نسيت طعم الماء النظيف في حلقي ، كنت أظن أن هناك من يشعر بحالي ويدري بما أشعر ، فلم أجد بعد الله غير المشردين من أمثالي .

أتساءل : لماذا يبدون بهذه الروعة ؟ كلما أتأملهم أجدهم في هيئة مذهلة ، هل النوم في فراش وثير تحت سقف غرفة دافئة حماية من شمس الصيف وبرد الشتاء تجعلهم يبدون منمقين هكذا ؟هل ملامسة الماء والصابون لأجســـــــامهم تجعلهـــــــم بتلـــــــك الرائحـــــــة العطـــــــرة ؟ هل كونهم يذهبون إلي أشغالهم يومياً ،و لديهم أسر وعائلات تملأ حياتهم

تمنحهم هوية في تلك الحياة ؟
لكنني علي يقين بأن الحياة مثل البحر ، قد تغدر بك علي غفوة وتنقلب وترى نفسك فجأة في الأعماق بعدما كنت تسير فوق الأمواج .
كلما ذهبت الي شخص استجديه ، أشعرأنه يتهرب مني قبل أن اقترب إليه ، أعلم أن اتساخ منظري يخيفه ورائحتي النتنة تصيبه بالغثيان ، وهندامي الملوث بالجراثيم ينبهه للهروب بأسرع وقت . ربما يشك في صحة عقلي ، يظنني مجنوناً ،أبله . يخاف أن اؤذيه او أفعل به مكروهاً . ربما أيضاً ليس لديه وقت ليفكر في علتي وأمري ، أو من الممكن انه فكر وتأمل لكنه ليس بيديه شئ .
أعذرهم جميعاً ، كنت في مكانهم ذات يوم ، أسير في طريقي إلي عملي وأنشغل بمسؤلياتي ، وأقابل من يستجديني وأتغافله لضيق وقتي ؛ فالحياة تلهث وراءنا بالواجبات والمسؤليات تضنينا وتنهك قوانا ،أعرف ما يشعر به الأن تجاهي.

لا أجد أحن من العلي على خلقته ، أستنجد ... أعلو بصرختي إليه : أنت تعلم كربتي وضيقي ، أعلم أنك الوحيد ملاذي وملجأ لي ، أعلم أنه مهما تزاحم حولي الأهل والأصدقاء والأحباب ، فليس باق لي سواك .
لا تستعجب أيها الانسان ، قد تكون يوماً مثلي فدوام الحال من المحال ، فلا تستنكر أو تفتر أو تظن أنك خالد باق والحياة طوع يدك وأن الربيع يدوم طول الزمان .